أفانين

بين الخوارزمي والهمذاني

للأستاذ علي الجندي

(تتمة)

كان دخول الرئيس أبي جعفر وصاحبيه الحربي والخيري ، بمثابة هدنة نفّست عن المتناظرين ، وأتاحت لهما قسطاً من الجمام ، فهدأت الشقاشق ، وسكنت الزماجر ، وأحسبهما أنسا بدخول الرئيس ، وارتاحا إلى هذه الهدنة وودّا أن يمتد أجلها ! ولكن الرئيس لم يحضر لفضّ النزاع وحسم الخلاف ، بل أتى كغيره ليرى تصاول العقول وتخاطر الفحول في ميدان المعقول والمنقول !

فما إن فرغ من السلام ، وأخذ مجلسه بين الصدور المقدمين حتى تولى توجيه المناظرة ، فاقترح أن ينشدا رويّة على وزن اختاره فتلمّظ البديع بلسانه ، وسرعان ما أنشد اثنى[1] عشر بيتاً منها :

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة أرضه وسمائه
والترب بين مُمسَّك ومُعنبر ... من نَوْره ، بل مائه ورُوائه
والماء بين مُصَندل ومُكفَّر ... في حسن كُدرته ولون صفائه
والطير مثل المحْصنات صوادح ... مثل المغنّي شادياً بغنائه
زمن الربيع جلبت أزكى مَتجر ... وجلوت للرائين خير جلائه
فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... في خلقه وصفائه وعطائه
ما البحر في تزخاره ، والغيث في ... أمطاره ، والجوّ في أنوائه
بأجلّ منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حِلْف فنائه

ثم أنشد الخوارزمي على هذا المثال تسعة أبيات لم نعثر عليها في مظانها

وقد وصفها البديع : بأنها جمعت بين إقواء وإكفاء وأخطاء وإبطاء ! وأنه أخذ عليها عشرين مأخذاً ! وذكر أنه اتجه إلى عميدي المجلس الوزير والرئيس ، فقال — مشيراً إلى الخوارزمي بعد فراغه من الإنشاد — : لو أن رجلاً حلف بالطلاق أن لا أقول شعراً ، ثم نظم تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي ، هل كنتم تطلقون عليه امرأته ؟ فهتف الجماعة : لا يقع بهذا طلاق !

ثم طلب البديع إلى الخوارزمي أن ينقد أبياته المتقدمة (برز الربيع لنا برونق مائه ...) فقال الخوارزمي : قلت : أنظر لروعة أرضه وسمائه ، ويقال : انظر إلى كذا . فلم تسمع منه الجماعة

وشبهتَ الطير بالمحصنات ، ثم شبهتها بالمغنيات . وأي شبه بين المحصنات والطير ؟ ثم كيف توصف المحصنات بالغناء ؟

فرد البديع : يا رقيع ! إذا جاء الربيع كانت شوادي الأطيار تحت ورق الأشجار ، فيكن كأنهن المخدرات بين الأستار ، والطيور في الخدور كالمحصنات ، وكالطير في ترجيع الأصوات

ثم قال الخوارزمي : وقلت : زمن الربيع جلبت أزكى متجر . هلا قلت : جلبت أربح متجر ؟ فقال البديع : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة .

ثم قلت : كالبحر في تزخاره ، والغيث في أمطاره ، والغيث هو المطر . فقال البديع : لا سقى الغيث أديباً لا يعرف الغيث ! الغيث هو المطر ، وهو السحاب . فصدقه الحاضرون

وهنا قال الإمام أبو الطيب الصعلوكي : قد علمنا أي الرجلين أشعر ، وأي الخصمين أقدر ، وأي البديهتين أسرع ، وأي الرويّتين أصنع !

ثم مال المتناظران إلى فنون أخرى ظهر فيها فوقُ البديع ، ووافق ذلك ملالة الحضور فشرعوا في الانصراف ، وهم يثنون على البديع ويسلقون الخوارزمي بألسنة حداد !

وهمّ الخوارزمي بالقيام فأصيب بإغماء ! فانحنى عليه البديع متمثلاً بقول بشر بن عوانة :

يعزّ عليّ في الميدان أني ... قتلت منافسي جلَداً وقهرا
ولكن رمتَ شيئاً لم يرمه ... سواك ، فلم أطق يا ليث صبرا

ثم أخذ يمسح عن وجهه ! ويقبل بين عينيه ! ويقول — على سبيل الاستهزاء — : إشهدوا أن الغلبة له !

ثم مدت الموائد وتكوّف حولها الحضور لتناول الطعام ، وكأن الظفر فتح شاهية البديع ! فجعل — كما يصف نفسه ويصف خصمه — يكرع في الجفان ، ويسرع إلى الرغفان !

(١) هنا تضارب بين رواية ياقوت ورواية الرسائل وقد رجحنا الثانية

ويمعن فى الألوان ! والخوارزمى يتناول الطعام بأطراف الأظفار ! فلا يأكل إلا قضما ، ولا ينال إلا شتا !

وقد بلغ من جفوة البديع وتحجر مشاعره أنه لم يرع للطعام حرمة ! فاتخذ خصمه هزءا وسخرية ! وتناوله بفنون من التندر اللاذع حتى استكفّه الوزير بقوله : قد ملكت فأسجح

ولما قام الخوارزمى عن المائدة — وقد خنقه تبريح الغيظ — قال للبديع : لأتركنك بين الميات . قال : ما معنى الميات ؟ قال : بين مهدوم ، مهزوم ، محموم ، مرجوم ، محروم ! فقال البديع : وأتركك بين الميات أيضاً : بين امسيام ، والصدام ، والجذام ، والحمام والسّام[1] ، والزكام ، والبرسام[2] والسقام ! وبين السينات : بين منحوس ، منخوس ، منكوس ، ممكوس ! وبين الخاءات . من مطبوخ ، ومسلوخ ، ومشدوخ ، ومفسوخ ، ومسوخ ! وبين الباءات : بين مغلوب ، مسلوب ، مرعوب ، مصلوب ، مركوب منكوب ، منهوب ، مغصوب[3] !

ثم انفض المجلس وخرج البديع تحفه هالة من أصحاب الشافعى السّنية ، يتبارون فى تعظيمه وإجلاله ! ويوسمونه ضمناً وتقبيلا !

وقبع الخوارزمى فى مكانه حتى غربت الشمس ، فعاد إلى داره كسير القلب خافض الطرف كاسف البال !

وكان لهذه الهزيمة وما لابسها من تألب أهل بلده عليه ، وخذلانهم له ، وقع شديد على نفسه ! فدلفت إليه العلل ، وألحت عليه الأوجاع ، فلم ينقض الحول حتى وافته المنية فى شوال سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة هـ

ومن الغريب أن اعتلاله لم يخفف من حقد خصومه عليه ! فكتب بعض سفلتهم إلى البديع ينهنئه بمرضه ! فرد عليه البديع بكتاب ليس فيه مسوح الرهبان ، ومرقعات الصوفية ! ومن الإنصاف . أن نشيد بما انطوى عليه من أريحية ونبل ولعل مرد ذلك إلى الصفاء الذى يعاود النفوس بعد أن تهدأ فورتها ، وتنجلى عنها غشاوة الباطل ! فتوقن أن المجد كله لله والعزة له

(١) الموت (٢) الجنون

(٣) زهر الآداب ٢ — ١٥٥ — ١٥٦ تفصيل وضبط وشرح الدكتور العلامة زكي مبارك

جميعا ! ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن الظفر بالقِرن يُحلّ الضغينة ويمحو غليل الصدور ، بل يستحيل — على تراخى الأيام — إلى عطف ورثاء ! وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة

قال البديع فى كتابه : الحرُّ — أطال الله بقاءك — لا سيما إذا عرف الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى ، إذا نظر ، علم أن نعم الدهر ما دامت ممدودة فهى أمانىّ ، وإن وجدت فهى عوارىّ ، وأن محن الأيام — وإن مطلت — فستفد ، وإن لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت ، فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت . وما أقبح الشماتة بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة . والدهر غرثان ، طُعمه الخيار ، وظمآن شربه الأحرار . فهل يشمت المرء بأنياب آكله ؟ أم يسرّ العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل — شفاه الله — إن ظاهرناه بالعداوة قليلاً ، فقد باطناه ودا جميلاً . والحر عند الحية لا يُصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصور حالتى إلا بصورتها من التوجع لعلته ، والتحزن لمرضته . وقاه الله المكروه ، ووقانى سماع المحذور فيه ، بمنّه وحوله ، ولطفه وطوله !

ولما مات الخوارزمى رثاه البديع ، ولعله اقتدى فى ذلك بجرير فى رثائه للفرزدق قال[1] :

حنانيْك من نفس خافت ... وليْك عن كد ثابت
تحمّلت فيك من الحزن ما ... تحمّله ابنُك من صامت
حلفتُ لقد متّ من معشر ... غنيّين عن خطر المائت
يقولون : أنت به شامتٌ ... فقلت : الترى بفم الشامت
وعزّت علىّ معاداته ... ولا مُتَدارَك للفائت

ورثاه أبو الحسن الرقاقى فأحسن وأساء :

مات أبو بكر وكان امرأً ... أدْهَمَ فى آدابه الغمرّ
ولم يكن حُرًّا ولكنه ... كان أمير المنطق الحرّ

ورثاء البديع للخوارزمى قد يصور لنا طرَفاً من الحرقة واللوعة التى يجدها النظير لفقد نظيره ! ولكنه لا يكشف عن

(١) اليتيمة ٤ — ١٩٦ — ١٩٧

شيء من فضائل المرثي كما هي سنة الرثاء، حتى لقد قال بعض النقاد: إنه لم يخل من الدس والسعاية !

ومهما يكن من شيء فقد كان البديع أكرم نفساً وأسنى طبعاً وأعف بياناً من الصاحب بن عباد الذي قال حين بلغه موته:

أقول لركب من خُراسانَ قافل : أمات خُوارزْميكم ؟ قيل: لي نعمْ

فقلت: اكتبوا بالجص من فوق قبره : ألا لعن الرحمن مَن كفر النّعم !

وبانتصار البديع أولاً وبموت الخوارزمي ثانياً، نبه ذكره واستطارت شهرته، ونفقت سوقه لدى الملوك والأمراء والوزراء، وتهادته الأقطار والأمصار، فلم تبق بلدة في خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها، فحسنت حاله وكثر ماله وفشت نعمته

وأراد - بعد امتلاء الوطاب وانتفاخ الجراب - أن يستمتع بالراحة، ويتملى النعيم، فتخير (هراة[1]) دار قرار، وصاهر فيها الحسيب النسيب أبا علي الحسين الخشنامي، فآوى منه إلى ركن شديد، واقتنى بمعونته ضياعاً فاخرة

ولكن القضاء العادل كان واقفاً له بالمرصاد فأخذه ولم يفلته !

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم

فمن قائل: إنه مات مسموماً؛ ومن قائل: إنه أصيب بالجنون؛ وهناك رواية وثيقة تقول: إنه اعترته غشية فظن به الموت وعجل له الدفن، فأفاق في قبره وسمع صياحه بالليل، فشقوا عنه فأصابوه قابضاً على لحيته وهو ميت من هول القبر ووحشته !

وكان ذلك يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة هـ

نسأله تعالى حسن الخواتيم ! علي الجندي

(١) مدينة حصينة الموقع في مملكة الأفغان الحديثة، تعد ثالثة مدنها بعد كابل وقندهار، وكانت مشهورة قديما بصباحة الوجوه والشمش الجيد ويقال: إن الذي بناها الاسكندر المقدوني

سكك حديد الحكومة المصرية

زوروا الأقصر وأسوان

بالتذاكر المشتركة بأجور مخفضة

للسفر بالسكة الحديد والمبيت بعربات النوم والاقامة والأكل بالوكالات

بتخفيض يتراوح بين ٣٠ — ٤٠ في المائة

في الأقصر		في أسوان
لوكاندة ونتر بالاس (درجة أولى)		لوكاندة كتاركت (درجة أولى)
لوكاندة الأقصر أو لوكاندة سافوي أو لوكاندة العائلات (درجة ثانية)		لوكاندة جراند أوتيل أو أسوان كامب أوتيل أو فكتوريا أوتيل (درجة ثانية)

ولزيادة الايضاح الرجاء الاتصال بقسم النشر بالادارة العامة بمحطة مصر

١٢ - ١٤